عامل الظالمين بالظلم تسلم ربَّ شرٍّ يكون فيه نجاةُ
يقرح الحادثات ما لوعتهُ كلُّ من عنده لعمري حصاةُ
لستُ تلقى امرءًا تهذَّب حتى غلبت سيئاته الحسناتُ
قلَّ نفعٌ لا يتقي الضرَّ منهُ ربَّ شرٍّ فجرّهُ الخيراتُ
والسحاب الذي يبلّ غليل الناس فيهِ صواعقٌ محرقاتُ
ايها الاغنياء لا تجهلوا ما يحمل البائسون والبائساتُ
ما تفكّرتُ في الحقيقة الاَّ واعترتني الشكوك والشبهاتُ
قد يودُّ الانسان لو طار في الجوّ خفيفًا كما تطير القطاةُ
كل ما في الوجود فهو لعمري علَلٌ تارةً ومعلولاتُ
ليس فضلٌ على زمانٍ لوقتٍ فالليالي جميعها اخواتُ
يلهج الجاهلون في كل عصر بدعاوٍ ما ان لها اثباتُ
انما الجاهل المجادل بالبا طل في اعين الترقّي قذاةُ
جوهرُ الكون في الوجود قديم غير انَّ الاشكالَ مخترعاتُ
من تروّى انَّ النجوم شموسٌ عظمت في عيونهِ الكائناتُ
يقرأ الفيلسوف من سور فيها كتابًا آياتهُ بيّناتُ

ابن العراق

الرواقيون

الرواقيون طائفة من الفلاسفة القدماء عرفوا بهذا الاسم لاجتماعهم تحت رواق الى الفيلسوف زينون واضع هذا المذهب ليأخذوا العلم عنهُ . والرواقية ابعد المذاهب الفلسفية القديمة شهرةً واعلاها آدابًا تمددت في شأنها الآراء الى ما لا يتقارب من الاقوال فغالى مريدوها في تمداحها وانزال تعاليها الدرة العليا من الكمال نتق شعر هوراس في تعظيمها واطلق سكا ليراعهِ العنان فاطنب في تبجيلها ووصفها مرقص اوريليوس بما لم يوصف بهِ من قبل علم ولا فضيلة وقام فريق آخر من عدائها تجاهلوا ما لها من الحسنات وعابوها بالعقم والوهن وعزوا الى آدابها الفساد والخسة والدَّعداتها آباء الكنيسة الذين حملوا عليها حملة شعواء لم تبقِ ولم تذر

على ان من واجبات الباحث ان لا يذهله وصف عشائها ولا يسترسل الى كلام عدائها وما يطعنون عليها والا يتجرد من كل هوى ويتقين الحق الصراح ان آداب الرواقية على ما فيها من الشرف البادخ والنقاوة التي امتازت بها على سائر المذاهب خرجت في كثير من مبادئها عن حد التعقل والاعتدال وتشوهت بالاوهام والتخرصات فظهر التناقض في تعاليمها فهوّن اوهن دعائمها وترك مجالاً فسيحاً لنقد الناقدين فتراها من جهة تمدح سير ايكتوتس واداب مرقص اوريليوس ومن الاخرى تستصوب افتخار كاتون وتدفع بروتوس الى احترام تلك النتلة الشنعاء

ولا ريب ان المدرسة الرواقية من اعظم المدارس شأناً وان ما نراه من التناقض في مبادئها وانتفاء الوحدة من تعاليمها نتج عن الاحوال التي نشأت فيها . ذلك انها ظهرت في زمن كانت بلاد اليونان فيه آخذة في التقهقر والانحطاط ومن السمات العامة لزمن التأخر ان لا يظهر من محيطه شيء عظيم وكل ما يظهر في ذلك الدور يحمل الشيء الكثير من علائم الانحطاط والبعد عن الكمال . ومن اعظم علائم الانحطاط انتفاء الوحدة في هذا المذهب ووفرة التناقض في الشيء الكثير من مبادئه . من ذلك قول هذه المدرسة ان جميع التصوّرات تحصل بواسطة الحس فاذا كانت جميع التصوّرات تحصل من مؤثرات العالم المادي في الحس فما معنى قولها بعد ذلك بالحرية وصورة الواجب الى غير ذلك من الآراء الروحية

قلنا ان واضع هذا المذهب الفلسفي زينون وهو رجل من قبرص جاء اثينا حوالي سنة ٣٠٠ ق . م طلباً للعلم فاقام فيها وتخرّج على اكابر علمائها لاسيما على كراتس زعيم الفلسفة الكلبية حتى اذا بزغ استقل بنفسه وانشأ مدرسة اجتمع حوله فيها جماعة من خيار الطلبة فوضع لهم مذهبهُ الفلسفي الذي انتشر من بعده في سائر العالم المتمدن وعرف اصحابهُ بالرواقيين

وقد تناوب على زعامة هذا المذهب من بعد زينون عدد من كبار رجال العلم مثل اثنادور واريستون وهيبريلوس القرطجني وكليانتس الودسي وغيرهم . وفي اواخر القرن الثاني قبل المسيح انتقل المذهب الرواقي الى رومة ونزل على الرحب بين عظماء المشرعين من اهلها وكبار دعاة الدين والسياسة ونبغ من زعمائه فيها سيبيون واميلين وكاتون وبروتوس وكثير غيرهم من الذين كان لهم في اعلاء منارهِ واشهار آدابهِ اليد الطولى

واستتب لهذا المذهب الشهرة خمسة قرون تباعاً تعززهُ في خلالها كتابات سنكا واپيكتوتس حتى جاءت اواخر القرن الثاني للتاريخ المسيحي فتطرق اليهِ الضعف واستخفل بهِ الوهن فاسلم الروح على ايام مرقص اوريليوس اعظم اقطابهِ قدراً واوسعهم علماً

اما مدار ابحاث المذهب الرواقي فعلى ثلاثة علوم هي المنطق والطبيعيات والآداب

اما المنطق فقد درس الرواقيون فيه مبادئ اخصيين مع الاحتفاظ على المشهور من قواعد ارسطو التي يثبت على وضعها الاصلي من غير ابدال ولا تغيير لأنهم اختصروا المقولات العشر فجعلوها اربعة واضافوا اليه نتفاً من علم البيان ثم اذاعوه للناس تحت الاسم الارسطي فأقبل الطلبة عليه اقبالاً عظيماً متنافسين في احرازه والسبق في مضماره ولذلك سار عندهم شوطاً بعيداً وكان له شأن كبير في العالم العلمي

اما ما ادخله الرواقيون من المبدإ الحسي او التصديق على المنطق فهو القول بان جميع التصورات تحصل للانسان بواسطة الحس ومن ثم يتولى شؤونها الادراك الذي هو فعّال وهي اي الشعورات منفعلة فتخرج من المخرق منها والمبهم الاحكام والاقيسة والحقائق العامة

الطبيعة — قال الرواقيون ان العالم مؤلف من عنصرين الواحد منهما منفعل والثاني فعّال فالعنصر المنفعل هو المادة ولكنها غير مخلوقة جامدة عطل من جميع الخصائص والعنصر الفعّال هو العلة الازلية المعروفة عند الناس باسم الله وهذا الاله جوهر ناري مدرك او هو نوع من الاثير وقد قال شيشرون ان الله بعد ان نظّم الكون اتحد به اتحاد النفس بالجسد وانهُ سوف يتلفهُ بواسطة الاحتراق العام وان نفوس الآلهة السفلى ونفوس الثابتين من البشر وجميع النفوس منبعثة من تلك النار الالهية وانهُ لا بدَّ لها من العودة اليها والامتزاج بها اه ويقولون بانتفاء العناية الالهية عن الخالق وان الكون محكوم بشرائع عامة والقدر محتوم على الكائنات بجملتها وان النفس البشرية صادرة عن نفس الكون العامة ومشاركة لها في طبيعتها النارية ولا بدَّ وان تعود اليها يوماً فيمتزجان معاً وان النفوس البشرية ليست بخالدة وان الخلود من الخصائص المميزة للنفس العامة ولا يشترك معها في ذلك غيرها من النفوس واما الارادة فلا تعمل مدفوعة بعامل خارجي عنها وانما تعمل بحكم القدر الذي لا يدفع

على انَّ هذه الاقوال واشباهها من انتزاع اشياء كثيرة من صفات الالوهية عن الله كالعناية والحرية المطلقة واشتراك الخالق مع الطبيعة وجعل المادة غير مخلوقة ازلية الى غير ذلك هي من الاقوال التي لا تخرج عن دائرة المذهب المعروف بوحدة الوجود pantheisme مع ذلك نرى الرواقيين في مواضع اخرى يعتون الخالق بالحكمة والادراك وانهُ يحكم العالم ويعني المخلوقات ويدبر الكائنات بمنتهى الحكمة والقدرة وأشباه ذلك من النعوت التي تنافي بجملتها ما سبق ذكرهُ

الآداب — قال الرواقيون ان الغاية من اعمال الانسان الخير ولا يكون الخير حتى تكون

الاعمال طبق العقل وبيّن ان العقل العنصر الفعّال في جسم الانسان كما ان الله العنصر الفعّال في الطبيعة لذلك يجب على الجسم اتباع اوامر العقل ليحصل له الخير وتكتسب الفضيلة ثم قالوا ان حياة الانسان اشبه شيء بمراك شديد مستمرين عدوين لدودين هما الشهوة والحرية وانهُ من الواجب ان تخرج الحرية من هذا المراك منتوجةً باكليل الظفر ولا تحصل لها الغلبة التامة ولا تفوز بالنصر المجيد الاَّ باذلال الشهوة واضعافها بل محوها بتاتًا من الوجود ولقد سبق الرواقيين الى مثل هذا القول سقراط وافلاطون وفيثاغورس وعلَّموا الناس بوجوب قمع الشهوات واخضاع النفس لاحكام العقل. على ان الرواقيين لم يأخذوا هذا الرأي عن هؤلاء الفلاسفة وانما تلقتهُ زينون عن اساتذته الكلبيين القائلين ان الحياة مراك شديد بين الحرية والشهوات وان كل ما يضعف الشهوات خير وان وكل ما يقويها شر

ولم يقف الرواقيون عند حد الاعتدال في كلامهم عن الحرية بل تجاوزوهُ الى المغالاة الفاضحة. من ذلك قولهم ان خير الانسان في الحرية واذا اردت ان تعرف الوسائط التي تمكنك من الحصول عليها اجيبك ان الواسطة الى ذلك هي الحرية اذ الحرية الانسانية تحدث ذاتها وتوجد في ذاتها ومن حصلت لهُ حصل على السعادة ولا يناله الشر حتى اذا اكتنفهُ المرض وانتابهُ الفقر لا يستطيع ان ينعت هذه الاحوال الاَّ بالبؤس والمكاره وليس بالشر لانهُ يستحيل اجتماع الحرية والشر معًا

***

وخلاصة القول ان الرواقية على ما فيها من التناقض في المبادىء والشوز في الكثير من تعاليمها عن الحقائق نشرت اجمل القواعد الادبية وانقاها وحسبك من سمو تلك القواعد وسكانها من الشرف قولها ان يسلك الانسان السبل التي يرشدهُ اليها العقل ولا يتبع في اعماله رغبات الحس وان الخير يحصل من اتباع الفضيلة كما ان الشر يحصل من الاسترسال الى الملذات والاسترقاق لشهوات واشباه ذلك الشيء الكثير من الحكم الرائقة والمبادىء الشريفة التي حالت دون اضمحلال الشرف وذهاب الادب في زمن الانحطاط والتأخر اليوناني. ولئن لم تقف الرواقية امام التقهقر الادبي ولم ترجع بالامة اليونانية الى ما كانت عليهِ الاَّ انها مع ذلك حفظت الآداب عن التلاشي البحت الذي كان يعدّهُ لها من قبل عاملان العامل الاول انحطاط البلاد يومئذٍ والثاني انتشار السلطة الايبقورية

واذا نظرنا الى تاريخ التمدُّن نرى للرواقية يدًا طويلة في ترقية شأن المجتمع واعلاء منار الادب فيهِ. يؤيد هذا ان العلماء يجثوا في القواعد الكبرى التي نهضت بالآداب في مراقي

الكمال فكانت في ثلاثة ادوارٍ من التاريخ الدور الاول الفلسفة الرواقية التي صحبت فقهاء الرومان فسنوا الشرائع وجمّدوها بمبدإ الحقوق والواجبات والدور الثاني المسيحية التي جاءت بالمبدإ السامي حب الله والقريب والدور الثالث الثورة الفرنسويّة سنة ١٧٧٩ التي ايّدت مبدأ الحرية في انكون على اختلاف اقسامها من سياسية ودينيّة ومدنيّة بحيث صار الانسان معها انسانًا

ل . ي

الفلسفة الحديثة[1]

للانسان ساعة يقف فيها يتأمل في هذه العوالم فيقودهُ الفكر الى ما وراء المشاهد من الطبيعة فيسأل عن اصل الاكوان ومصيرها ويتبصّر في مسألة الموت وهولها فيودّ لو يخترق حجاب القبر ويرى قبل موته عالم الحشر

اين كنا وماذا نصير . من خلق العالمين ومن سنّ السنن التي تجري عليها وما القصد مما نرى من اجزاء الوجود ومظاهر الطبيعة . تلك مسألة المسائل التي لا بد للباحث من النظر فيها فإما ثبات على رأي قديم واما تعلق بخيوط العنكبوت التاصر . والانسان بين ما ورث وبين ما يرى الغريق وسط اللجج تتقاذفهُ التيارات وتتلاعب بهِ الامواج فلا يشعر الاّ وقد وهنت عزيمتهُ وقلت في امر النجاة حيلتهُ فيستسلم لعوامل الفناء ويرضى بالرغم عنهُ بحكم القضاء

والمسألة دقيقة تقتضي البحث الطويل والروية الكاملة فكاميّ ممن جربوا الخوض فيها وخانتهم عقولهم وكاميّ ممن لزموا التمسك باتوالهم الموروثة فتمادوا في العناد وقامت قيامتهم على من استسلم لعقلهِ في امر القياد — هؤلاء الفلاسفة والمفكرون من سلم منهم من لسان المتعصبين ومن نجا منهم من سهام المنتقدين وهؤلاء المحافظون كم استهزأ بهم المارتون وعدّوا آراءهم آراء العجائز وكلهم معذور في امرهِ فان السالك وعر والطريق عسر لا يأتي فيهِ الاّ الكامل المعتاد الواسع الدراية وقليل من هم

ولقد قرأت ما تيسر لي من كتب الفلسفة فلم ارَ في احدها ما ينتج لنا حل هذه المسائل بل رأيتُ آراء القوم شتى كلٌّ يدعي صحة برهانهِ وكلٌّ يقول ببطلان ما سواهُ حتى لقد حرت في اي طريق اسلك واي باب اقرع فتلت ابسط للقوم آراء القوم متخلصاً من

(١) خطبة تليت في « حفلة الادباء » في الكلية السورية الانجيلية ببيروت تحت اسم ضلال اطلاّ